

أبو حنيفة

ولكن بغير فقه

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قد اتبينا في الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة، فأصبح كل من يكتب ينشر له، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول في مذهبه ويرد على مذهب غيره.

فعدنا اليوم كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة، منها قولهم: أدب الشيوخ وأدب الشباب؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب، وأدب الألفاظ وأدب الحياة، والوجود والتحول، والقديم والجديد. ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه، والشافعي ولكن بغير اجتهاد، ومالك ولكن بغير رواية، وابن حنبل ولكن بغير حديث. أسماء بينها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها. وليس يكون الأدب أدبا إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه التواضع من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان، إذ لا يجرى الأمر فيما علا وتوسط ونزل إلا على إبداع غير تقليد، وتقليد غير اتباع، واتباع غير تسليم؛ فلا بد من الرأي ونبوغ الرأي واستقلال الرأي حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها، كما أن الحي الجالس في كل حي هو مجموعته العصبي، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول في الوجود الإنساني يرجع بالحياة إلى ذرات معانيها، ثم يرسم من هذه المعاني مثل ما أبدعت ذرات الخليقة في تركيب من تركيب، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلد الإلهي. (١)

(١) استوفينا هذه المعاني في مقالة «الأدب والآداب» من مقالاتنا في الرسالة

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربي في عصرنا أو ينتهي؛ وهل تراه يعلو أو ينزل؛ وهل يستجمع أو ينفض؛ وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو في مكان بينهما؟

هذه معانٍ لو ذهبت أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلاً أمراً فيه بعظام مبعثرة في ثيابها لا في قبورها... ولكنني موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها، وإليه وحده يرجع ما نحن فيه من التعادي بين الأذواق والإسفاف بمنزاع الرأي والخلط والاضطراب في كل ذلك؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه، وهم يرونه على أحسنه، وحتى قيل في الأسلوب أسلوب تلغرافي، وفي الفصاحة فصاحة عامية، وفي اللغة لغة الجرائد، وفي الشعر شعر المقالة، ونجحت الناجمة من كل علة، ويُرَيْن لهم أنها القوة قد استحسنت واشتدت، ونازع الأدب العربي إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دعيّاً في آداب الأمم، واستهلكه التضييع وسوء النظر له على حين يؤتى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيافته وحسن الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه.

أين تصيب العلة إذا التمسنا؟ أفى الأدب من لغته وأساليب لغته، ومعانيه وأغراض معانيه؟ أم في القاعين عليه في مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبههم؟

إن تقل إنها في اللغة والأساليب والمعاني والأغراض، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها، وتتقلد البليّة من كل من يعمل فيها؛ وقد استوعبت واتسعت وما دّت العصور الكثيرة إلى عهدنا فلم توت من ضيق ولا جمود ولا ضعف. ثم هي مادة ولا عليها من لا يحسن أن يضع يده منها حيث يملأ كفه أو حيث تقع يده على حاجته.

وإن قلت إن العلة في الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم، سألتك: ولم قصرُوا عن الغاية، ولم وقعوا بالخلاف، وكيف ذهبوا عن المصلحة، وكيف اعتنقت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح في سببه مقام أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتاباً وشعراء؛ ومع انفساح الأفق العقلي في هذا الدهر واجتماعه من ألقافه لمن شاء؛ حتى لتجد عقول

نوايخ القارئات الخمس تحتقب في حقبة من الكتب ، أو
تُصنِّدُ^(١) في صندوق من الأسفار

كيف ذهب الأدباء في هذه العرية نشراً متبدلين تعلو بهم
الدائرة وتهبط ، فكلُّ أعلى وكل أسفل . هذا فلان شاعر قد
أحاط بالشعر عريه وغريه وهو ينظمه ويفتن في أغراضه
ويولد ويسرق وينسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذي
فقدته كل أمة من تاريخها ، ووقع في تاريخ العرية وحدها ابتلاء
ومحنة ؛ وهو ككل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا في
لغات غير العرية لظهروا نجوما ، ولكن العرية جعلت كلا
منهم حصاة بين الحصى . وتقرأ شعره فإذا هو شعر تروم من
قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً .

وهذا فلان الكاتب الذي والذي . . . والذي يرتفع إلى
أقصى السموات على جناحي ذبابة .

وهذا فرعون الأدب الذي يقول : أنا ربكم الأعلى . وهذا
فلان وهذا فلان .

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم
فيه ، وليضطروا آراءهم وهو أجسم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس
لا عند أنفسهم ، فالواحدة منهم واحدة وإن توهوها مائة وتوهوها
بعضهم ألفاً أو ألفين . ومتى قال الناس : غلطوا فقد غلطوا ، ومتى
قالوا : سخفاه فهم سخفاه .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مسخرون بالجبر
على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة
لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها . نافرة لا مساغ إليها ،
متهمه لا ثقة بها ، طبيعة يتحول كل شيء فيها إلى أثر منها كما يتحول
ماء الشجر في العود الرطب المشتعل إلى دخان اسود .

يرجع هذا الخلط في رأيي إلى سبب واحد : هو خلو العصر
من إمام بالمعنى الحقيقي يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر في
حكيمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشماله ، فان مثل هذا
الإمام يُنحَصُّ دائماً بالإرادة التي ليس لها إلا النصر والغلبة ،
والتي تعطى القوة على قتل الصغائر والفساسف ؛ وهو إذا ألقى
في الميزان عند اختلاف الرأي ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من

(١) كلمة وضاعاً على قياس تحتقب

أنصاره والمعتبين بأدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليات
المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثم تنهأ قوة الترجيح ويتعين اليقين
والشكر . والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجح ولا يعين
ومكانة هذا الإمام تحدد الأمكنة ، ومقداره يزن المقادير ،
فيكون هو المنطق الإنساني في أكثر الخلاف الإنساني : تقوم
به الحجة فتلزم وإن أنكرها المنكير ، وتمضى وإن عاند فيها -
المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصرَّ المصِرُّ على غيرها . لأن بالإجماع
على القياس يبين التطرف في الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا
ضرب ضرب المعصية بالطاعة ، والزيف بالاستقامة ، والعناد
بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وسنمه ، ويزيغ من يزيغ
وفيه صفته ، ويصرُّ المكابر واسمه المكابر ليس غير وإن هو
تكذَّب وتأوَّل ، وإن زعم ما هو زاعم

ولكل القواعد شواذ ولكن القاعدة هي إمام بابها ؛ فامن
شاذ يحسب نفسه منطلقاً مخلى ، إلا هو محدود بها مردود إليها ،
متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذ -
إلا بما تعرف به أنها قاعدة ؛ فيكون شأنه في نفسه بما تعين له
على مكرهته ومحبه

والإمام يثبت في آداب عصره فكراً ورأياً ، ويزيد فيها
قوة وإبداعاً ، ويزين ماضيها بأنه في نهايته ، ومستقبلها بأنه في
بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها
من جهة أخرى ؛ لأن هذا الإمام إنما يختار لإظهار قوة الوجود
الإنساني من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية
من آيات الجنس يأتسُّ الجنسُ فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى
منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم
المأمول على الواقع ، ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة التي
لا يكابر عندها متقطع بتأويل ، وفي القوة التي لا يخالف عندها
مبطل بعناد ، وفي الشريعة التي لا يروغ منها متعسف بحيلة .
ولن يضل الناس في حق عرفوا حده ، فان ما وراء الحد هو التعدي ؛
ولن يخطئوا في حكم أصابوا وجهه ، فان ما عدا الوجه هو الخلاف
والمرء .

وقد طبع الناس في باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فن
انفرد بالكمال كان هو القدوة ، ومن غلب كان هو السميت ، ولا بد

جيلان

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« ألا تعرفي ما هذا الجديد ؟ »

ولم يكن كلامنا في الأدب أو الفنون وإنما كانت المساكن والآحياء هي مدار الحديث . وكان الرجل يناهز الستين ولكنه في نشاط ابن العشرين ، وأنا آنس به وأسكن إليه ، ويسرنى أن أجلس بين يديه وأصغى — أو لعل الأصح أن أقول أنظر — إلى عباب حديثه المتحدر فقد كان يذكرني بالبحر وبروعني مثله بمثل فيضه الزاخر

فقلت له : يا سيدي ، العارف لا يعرف . . ولكني أستاذك في أن أقول لك إنك جيلان — أنت وبنوك — ومن حقدك أن تبرم بهم وتسخط على نزعتهم في الحياة وتستسخر مطالبهم فيها وغاياتهم منها . . أنت حر في ذلك ولكن من حقهم أيضاً أن يضجروا منك لأنهم يزعمون غير نزعتك وأن يطلبوا من الحياة غير ما تطلب ، لأن وجوهها اختلفت . وأظن أن هذا عدل ، فصاح بي : « عدل ؟ كيف تقول ؟ عدل أن يخرجوني من بيتي ويحملوني إلى حي أنا فيه غريب لا أشعر إلا بالوحشة ؟ » ويقصوني عن أحبابي وأصحابي وعشراء الصبي وأخدان العمر كله ؟ ما عيب بيتنا بالله ؟ إلى لست متعتا . . أنت تعرف بيتنا فهل تعرف فيه عيباً ؟ »

قلت : كلا . . وأشهد أن لا عيب فيه . . واسع وصحي وأسباب الراحة فيه موفورة . . نعم لا عيب فيه ولكني أعترف بأن لو كنت ابنك لما فعلت إلا ما فعل بنوك . . أي أخرجت منه ،

فقال : أنت كنت تفعل ذلك ؟ حاشا لله . . إنك عاقل . . قلت : « المسألة ليست مسألة عقل . . وإنما هي مسألة حياة تغيرت وجوهها وزمن اختلفت المطالب فيه ،

قال : « إلى أجاد لهم كل يوم . . الكلام في هذا لا ينتهي بيتنا ، قلت : « وهذا حسن . . وجدتم على الأقل موضوعاً للكلام لا تخشون أن ينضب معي ،

لهم من يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مرادهم ومصالحهم ، فالإمام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتسلط في الحكم على الناقص والوافي من كل ما هو بسيله ، ثم لا خلاف عليه إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلة بعد منزلة .

هو إنسان تتخير بعض المعاني السامية لتظهر فيه بأسلوب عملي ، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا المثال نفسه ، فإنه يرد الأمور في ذلك وبتلوه يتلى وعلى سبيله ينهج ، فما من شيء يتصل بالفن الذي هو إمام فيه ، إلا كان فيه شيء منه ؛ وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها لأنه بفنه حكم عليها ، فيكون قوة وتنبيهاً وتسيلاً وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ، ويكون رجلاً وإنه لمعان كريمة ، ويكون في نفسه وإنه لفي الأنفس كلها . ويعطى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه تخليق من الحب طريقته على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين ، فلا بد على هذه الأرض من ضوء في لحم ودم ، وبعض معاني الخليفة في تنصيبه كبعض معاني « الشهيد المجهول » في الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة وضمت يتكلم ، ومكان يوحى ، وقوة تستمد ، وانفراد يجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة في شرف الحياة والموت بل الحرب مخبوءة في حفرة ، والنصر مغطى بقبر ، بل المجهول الذي فيه كل ما ينبغي أن يعلم .

فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذا كل من يزعم نفسه إماماً هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن بغير فقه .

ولعمري ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن ههنا موضعاً خالياً يظهر خلاؤه مكان الفصل بين الناحيتين ويجعل جهة تحاز من جهة ، فنذ مات الإمام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، وتأت رومن ، وزاغت طبائع . وكأنه لم يمض رجل بل رفع قرآن .

(خطا)

عن الأستاذ